وشرعنا في السير، فاذا بنا نلمح كوكبة فرسان تتعقبنا، وسرعان ما اتضح جبن هؤلاء الاندلسيين الادعياء وكانت كلمات القتل والقتال تكاد لاتفارق افواههم، فقد لاذوا بالفرار، ولم يسيطر على نفسه إلا انا و دانكير و گارسيا وفتى (ايجيكي) جميل الطلعة اسمه (ريمندادو). ترك الاخرون بغالهم وقذفوا بانفسهم الى الوادي حيث يتعذر على الخيل ان تتعقبهم. لم يكن في وسعنا انقاذ حيواناتنا، فتركناها واخذنا ما خف حمله وغلا ثمته من البضاعة وحاولنا النجاة بجلدنا عن طريق الصخور سالكين اشد الطرق انحداراً ووعورة. صرنا ندفع البضاعة امامنا وننزلق وراءها على اخامص كعوبنا، فصب علينا العدو ناره. كانت المرة الاولى التي اسمع فيها لعلة الرصاص في حياتي الجديدة. لكني لم اعبأ، فالمرء عندما يكون مشمولاً بانظار امرأة لافضل له في تحدي الموت. نجونا جميعاً خلا (ريمندادو) المسكين فقد اصيب برصاصة في حقوه. رميت حملي وحاولت انهاضه وحمله فصاح بي (گارسيا):

- تباً لك من غر اخرق! ماذا تفيدك هذه الرقة؟ دعه وشأنه وعليك بالجوارب القطنية.

وصرخت بي كارمن: «تخل عنه!».

اضطرني الاعياء الى القائه وراء الصخرة هنيهة ريثما التقط انفاسي فدنا الاعور وافرغ غدارته في رأس الزميل التاعس، ثم قال وهو يتأمل الوجه الذي مزقته عشرات رصاصات الرش شر

تمزيق: «لن يعرفه الا الذكي الاريب».

تلك هي الحياة السعيدة التي اخترتها ياسيدي.

وجدنا انفسنا في غابة وقد حل المساء وبرح بنا الجوع واضعفنا فقدان الرجال. فماذا فعل گارسيا الشيطان؟ اخرج حزمة من ورق اللعب: وطفق يلاعب دانكير على ضوء النار الموقدة. وفي تلك الاثناء. استلقيت على ظهري شاخصاً الى الكواكب مفكراً في (ريمندادو) متمنياً لنفسي مصيره. ودنت كارمن وافترشت الغبراء بجانبي واخذت تضرب صحنيها وتدندن بين ان واخر. ثم زحفت اليّ وكان لديها ما تهمس في اذني وقبلتني مرتين او ثلاثاً ضد رغبتي تقريباً. فبادرتها قائلاً: «انت الشيطان بعينه» فاجابت: «اجل اني لكذلك».

وبعد ان اصابت بعض الراحة غادرتنا الى (كاوسين) وفي صبيحة اليوم التالي جاءنا صبي راع بقليل من الخبز. مكثنا هناك طول اليوم ولما اقبل الليل دنونا من (كاوسين) وصرنا نترقب خبراً من كارمن عبثا. وعند الفجر رأينا مكاراً يسوق بغلاً تمتطيه امرأة انيقة الثياب وفوق رأسها مظلة منشورة لتقيها وهج الشمس وخلفها صبية هي في الظاهر خادمتها. فقال گارسيا:

- اليكما امرأتين، ارسلها لنا القديس نيقولا وددت لو كانت اربعة بغال. لكن لابأس وسأضطلع انا بالعمل.

امسك غدارته وسار يريد الطريق متستراً وراء الشجيرات، وعلى مسافة منه جئت انا ودانكير. ولما صرنا على مقربة من

درب ودير صغير في قرطبة

القـافلة اهبنا بالمكار فـوقف. وبدلاً من ان ترتـاع المرأة بظهـورنا الفـجائي (ثيـابنا وحدها كانت كـافيـة لاظهار حقيـقة مهنتنا) اطلقت ضحكة مجلجلة وهتفت بلغة الغجر:

- يا للحمقى الاغبياء! حسبوني سيدة حقيقية!

كانت كارمن بعـينهـا اتقنت تنكرها حتى اني لم اعرفـها الا حين تكلمت بلغتها. وترجلت واخذت تتحدث همساً هي ودانكير و گارسيا. ثم التفت اليّ وقالت:

- سنلتقي ياكناري قبل ان تشنق. فانا ذاهبة الى جبل طارق بعملية تهريب، وستأتيك انبائي في القريب العاجل.

افـترقنا بعد ان دلتنا على ملجأ آوينا اليـه عدة ايام. كـانت تلك الفتـاة يد العناية الالهيـة المنقذة لعصبتنا. ارسلت لنا نقوداً واتحـفـتنا بمعلومـات اثمن من النقـود. خـلاصـتـهـا ان انكليـزيين سيـمران في يوم كذا من الطريق الفلاني وهما يحملان مالاً كثيراً و... «اللبيب تكفيه الاشارة» على حد قولها. اراد (گارسيا) ان يتخلص منهـما بقتلهـما، فعارضتـه انا ودانكير واقتـصرنا على سلبهـما نقودهما وساعتيهـما وصداريهـما اذ كنا في اشد الحاجة الى ثياب. لكننا ابقينا على حياتهما. ان المرء ياسيد ينقلب وغداً سافلاً دون ان يفكر في هذا الانقلاب لحظة واحدة. انك لتهيم حباً بفـتـاة فـتـقـاتل في سـبيلها وتـخوض المصائب الشداد وتقـتـحم الاخطار، ولا تجد لك ملجأً الا الجبال. ثم انك تتقلب لصاً بعد ان كنت مهرباً دون ترو او تفكير فما قولك..؟

مهما يكن من امر، فقد رأينا ان نبقى مختفين في ضواحي جبل طارق بعد ان سلبنا الانكليزيين، فتوارينا قرب نهر (رنده).

انك ذكرت لي في مقابلتنا الاولى، طرفاً من اخبار «خوزيه ماريا» لقد تعرفت به هناك، وكان يأخذ عشيقته معه اثناء غزواته. لحاها الله من فتاة جميلة ذكية حيية دمثة الخلق عفة اللسان، شديدة الاخلاص، كل ما جازاها (خوزيه) عن شقائها وآلامها، انه لم يستح من الجري وراء الفتيات الاخريات. لم يتورع عن احتقارها وانتهارها حين يخطر بباله ان يشعر ببعض الغيرة! ومرة طعنها بخنجر! وماذا في ذلك؟ ازداد حبها له، والانكى من ذلك انها صارت تفخر بالندبة التي تركتها الطعنة في ذراعها فكانت تعرضها للرائي كانها حلية تفوق كل الحلى. وازداد خوزيه عيوباً فكان احط الزملاء طراً. ففي عملية تهريب قمنا بها معاً احتاط ودبر الامر بحيث عادت اليه المنفعة كلها وخرجنا منها صفر اليدين لم ننل غير المتاعب والركلات...

والان فلنعد الى قصتنا:

انقطعت عنا اخبار كارمن فقال دانكير:

- يجب ان يذهب احدنا الى جبل طارق يتنسم خبرها. فلابد وانها تدبر امراً.. وددت لو كنت الرسول لولا انني معروف هناك.

وقال گارسيا:

- كذلك انا. فقد اصطدت كثيراً من «سرطانات البحر»[٤٨] وبما اني اعور، فمن الصعب ان اتنكر.

فقلت- (وانا مغتبط في سري لكوني ساجتمع بكارمن)، «اذن لا مفر لي من الذهاب. فلنر ما يمكن عمله في هذا الشأن».

فقال الاخران:

- لك ان تختار بين الابحار والسفر براً بطريق «ساندروك» فاذا وصلت جبل طارق فسل عن حلوانية اسمها (روللونا) وستزودك بجميع الاخبار..

واتفقنا ان نرحل الى جبال كاوسين، فآخذ سمتي واتركهما هناك. لادخل جبل طارق متنكراً بزي بائع فاكهة وزودوني بجواز سفر رجل من «رنده» تجمعنا به مصالح مشتركة. وفي كاوسين اعطيت بغلاً محملاً بالبطيخ والبرتقال. وهكذا اخذت سمتي الى جبل طارق وهناك سألت عن «روللونا» وكانت معروفة جيداً، فلم اعثر لها على اثر. اما انها توفيت او ذهبت الى جهنم. وقد ظهرت فداحة الخسارة بها لانها حلقة الاتصال بكارمن. اودعت بغلي اصطبلا وحملت برتقالي واخذت اجوب المدينة انادي على بضاعتي (البرتقال!) علّي اقع على وجه مألوف او صديق معروف. يؤم جبل طارق كثير من المتشردين القادمين من شتى انحاء المعمورة فهو برج بابل هذا العصر. والمرء لايسير عشر

٤٨- هكذا يسمي الاسبان الجنود الانكليز، لان بزاتهم العسكرية حمراء اللون تشبه لون سرطان البحر بعض شبه.

خطوات في الشارع الا طرق سمعه من اللغات ما يفوق عدد خطواته. وقد لقيت كثيراً من الغجر لكني لم اجرأ على الوثوق باحد منهم. كانت مظنة السوء بيننا متبادلة، وكل منا يرى الاخر محتالاً.. كان المهم عندي ان اعرف من ينتمي الى جماعتي منهم. وبعد يومين قضيتهما في تجوال عقيم، لم اعثر على اثر ما، لا لروللونا ولا لكارمن. فقررت ان استبضع من السوق شيئاً وارجع الى رفاقي. وفيما انا اسير الهوينا مساء اليوم الاخير قبل عودتي، سمعت صوتاً نسائياً يناديني من احدى النوافذ: «يابائع البرتقال!»

ارسلت بصري فرأيت كارمن في الشرفة تستند بكوعها على الحاجز، وبجانبها ضابط ببزة عسكرية حمراء، على كتفيه رمانتان ذهبيتان تنطقان بسمو رتبته. كان جعد الشعر تنم ملامحه عن كرم محتد ورفعة شأن، وكانت هي انيقة الثياب، على كتفيها ربطة ثمينة وفي شعرها مشط ذهبي، وقوامها مكسو بثوب حريري. يا للعزيزة الغالية! كانت تضحك كما هو شأنها دوماً، تضحك سعادة ورضى! أمرني الضابط الانكليزي بلغة اسبانية ركيكة ان الج الدار لان السيدة ترغب في شراء بعض البرتقال. وخاطبتني كارمن بلغة الباسك قائلة: «اصعد ولاتبُد دهشة مما سترى».

في الواقع ان ما تصنعه هذه الغانية لا يدهشني، ولست ادري هل كان شعوري بالفرح يفوق شعوري بالغم بعد عثوري عليها ام

بالعكس. كان بالباب حاجب انكليزي ضخم الجثة وجهه مطلي بالمساحيق[٤٩] فخف الى ادخالي غرفة فخمة وهناك ابتدرتني كارمن بلغة الباسك: «تذكر انك لاتفهم كلمة اسبانية واحدة ولم ترني من قبل» ثم استدارت الى الانكليزي وقالت:

- ارأيت! الم اقل لك؟ لقد تأكدت من جنسه الباسكي اول ما وقع عليه نظري انك ستسمع الان لغة سمجة مضحكة. لكم يبدو اخرق غريباً؟ آه ان المرء ليخاله قطاً محبوساً في خزانة ثياب.

قلت لها بلغتي «ان المرء ليخالك عاهراً صفيقة الوجه، لكم اود ان اكيل لك صفعة امام عشيقك الصنديد!»

فصرخت: «عشيقي؟ اهذا ما كتشفت؟ انت غيور من هذا الحيوان الواقف هنا، لا بأس اذن، انك الان اعظم حمقا مما كنت في شارع «القنديل» تلك الليلة. الا ترى ايها المأفون اني ادبر عملية تهريب بشكل لامثيل له، ولم يسبقني فيه احد؟ ان الدار التي انت فيها، ملكي وحلالي، وستكون جنيهات هذا السرطان لي ايضاً. اني الان اقوده من ارنبة انفه. وبعد قليل سأقوده الى حيث لارجعة!».

احببتها: «ان كانت هذه طريقتك في تدبير العملية فسأحتال على احباطها قبل البدء بها».

٤٩- كان من عادة الوصفاء والخدم والانكليز حتى القرن التاسع عشر ان يرشوا على اجوههم مسحوق الابيض (البودرة).

- آه اهو كذلك؟ أأنت زوجي لتملي علي اوامرك؟ ان الاعور موافق فما دخلك انت؟ ماذا تفعل هنا. الا يكفيك فخراً انك الرجل الوحيد الذي يمكنه الادعاء بانه عشيقي؟

وسألها الانكليزي، عما اقول، فاجابت:

- يقول انه عطشان ولن يرفض كاس خمر مترعة.

قالت هذا والقت بنفسها على الريكة متضاحكة لطريقتها الفذة في ترجمة كلامي. عندما تضحك هذه الفتاة ياسيدي، لايبقى مجال للحديث الجدي الرزين. ضحكنا جميعاً لضحكها، ضحك الانكليزي العالي المقام كالرقيع، بل كأرقع الرقعاء وامر بشراب لي. وفيم انا اتحساه، قالت لي كارمن:

- اترى هذا الخاتم الذي يزين اصبعه؟ ان شئت قدمته لك.

فاجبتها:

- انني انزل بطيبة خاطر عن احد اصابعي لو تسنى لي مقابلة سيدي الانكليزي في الجبال وفي كل منا «ماكيلاً»[٥٠].

فسألها الانكليزي «ما معنى كلمة (ماكيلا؟) فاجابت كارمن وهي تتضاحك:

- الماكيلا، بلغة الباسك معناها «برتقالة» اليس هو تعبير مضحك للبرتقالة يقول انه يود لو تأكل برتقالة واحدة.

فقال الانكليزي لي «لابأس ولتجلب لنا كمية اخرى من

٥٠- الماكيلا Maquila هي عصا ملبسة بالحديد كما تقدم. وترجمناها بدبوس القتال.

(الماكيلا) غداً».

وفيم نحن نتكلم، اقبلت خادم واعلنت اعداد الطعام فنهض الانكليزي ونفحني بريال وقدم ذراعه (لكارمن) كأنها لاتقوى على السير وحدها. وهنا قالت لي:

- لا استطيع دعوتك للغذاء ياطفلي لكني سأنتظرك هنا فتعال غداً حال قرع طبول التدريب ولاتنس البرتقال وسترى غرفة اضخم رياشاً من تلك، (في شارع القنديل) كذلك سترى اني حبيبتك (كارمنسيتا) المقيمة على الود وسنبحث ايضاً مسألة التهريب.

لم انبس ببنت شفة وخرجت الى الشارع وصوت الانكليزي يدوي في اذني مذكراً اياي بألا انسى ان آتي (غداً) ببعض (الماكيلا) وسمعت ضحكات كارمن المجلجلة من بعيد وخرجت محتاراً فيما اصنع. جفا الكرى عيني ولم يغمض لي جفن. وفي الصباح وجدت نفسي شديد الحنق على الخائنة فقررت مغادرة جبل طارق على التو ضارباً عرض الحائط وعدي معها. لكن ما سمعت اولى قرعات الطبل، حتى ارتخت مفاصلي ووهت عزماتي. فحملت سلتي المملوءة برتقالاً، واسرعت الى كارمن. لمحت عينها السوداوين النجلاوين تتبعان حركاتي من وراء السجف المسدل نصفه. وافسح لي الحاجب ذو الوجه المطلي بالبياض السبيل فوراً. وقد اسرعت فارسلته بمهمة. ولما خلا لنا الجو، اطلقت كارمن احدى ضحكاتها المعهودة الصاخبة الشبيهة بقهقهة